أخلاقيَّات العلْم

إن العلم فى نظر الإسلام ليس مجرد حشو الرؤوس بالمعلومات، مهما تكن قيمة هذه المعلومات من جلالة القدر فى موضعها، أو فى طريقة ثبوتها، حتى العلم المقتبس من طريق النبوة – الذى هو العلم الأعلى – لا يكفى فيه محض اكتسابه وتحصيله، بل لا بد لصاحب العلم من الالتزام بالقيم الخلقية التى يفرضها العلم على أهله، والتى جعلتهم أهلاً لأن يكونوا خلفاء الأنبياء، وسنخص بالحديث هنا أبرز هذه الفضائل التى يجب أن يتخلق بها أهل العلم.

١ – الشعور بالمسؤولية:

وأولى هذه القيم: الشعور بالمسؤولية أمام الله، فالعلماء ورثة الأنبياء، ولا رتبة أعلى من رتبة النبوة، ولا درجة أعظم من درجة الوارثين لهذه الرتبة وعلى قدر المنزلة تكون المسؤولية.

عن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله – ﷺ – : «لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ وعن علمه: ماذا عمل به[١]؟».

وكلما اتسعت دائرة علم الإنسان كلما عظمت مسؤوليته. فليس من علم مسألة كمن علم عشراً أو مئة، وكما أن من كثر ماله كثر حسابه، وطال سؤاله، وعسر جوابه. فكذلك من كثر علمه واستبحرت معارفه، كانت مسؤوليته أكبر، وتبعته أثقل.

فهو مسؤول عن علمه من عدة جوانب:

---

(١) رواه البزار والطبرانى بإسناد صحيح واللفظ له كما فى الترغيب حديث (١٥٦٤) ومجمع الزوائد (١٠/٣٤٦).

مسؤول عن صيانته وحفظه حتى يبقى، ومسؤول عن تعميقه وتحقيقه حتى يرقى، ومسؤول عن العمل به حتى يثمر، ومسؤول عن تعليمه لمن يطلبه حتى يزكو، ومسؤول عن بثه ونشره حتى يعم نفعه، ومسؤول عن إعداد من يرثه ويحمله حتى يدوم اتصال حلقاته، وقبل ذلك كله، مسؤول عن إخلاصه في علمه لله حتى يقبله منه.

وعن مالك بن دينار عن الحسن البصري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يخطب خطبة إلا الله عز وجل سائله عنها - أظنه قال - ما أراد بها؟».

وكان مالك بن دينار إذا حدث بهذا الحديث بكى حتى ينقطع ثم يقول: تحسبون أن عيني تقر، وأنا أعلم أن الله عز وجل سائلي عنه يوم القيامة: ما أردت به [1]؟

وكان أبو الدرداء الصحابي الفقيه الزاهد - رضي الله عنه - يقول: إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر [2]، فأقول: لبيك رب! فيقول: ما عملت فيما علمت [3]؟

٢ - الأمانة العلمية:

ومن أخلاقيات العلم الأمانة فهي من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا أمانة له. قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ**﴾ [المؤمنين: ٨]

كما أن الخيانة من لوازم النفاق، فمن آيات المنافق البارزة: أنه إذا اؤتمن خان [4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «تناصحوا في

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي بإسناد جيد.

(٢) اسم أبي الدرداء: عامر، وعويمر تصغير له.

(٣) رواه البيهقي. كما في الترغيب ج ١ حديث (٢١٥).

(٤) متفق عليه من حديث أبي هريرة، اللؤلؤ والمرجان: (٣٨).

العلم، فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله، وإن الله سائلكم يوم القيامة [١] » .

وما ذلك إلا لأن الخيانة فى المال – مهما عظمت – محدودة الضرر ، أما الخيانة فى العلم فقد تدمر مجتمعا بأسره .

ومن أمانة العلم أن ينسب القول لمن قاله ، والفكرة لصاحبها ، ولا يستفيد من الغير ثم يسند الفضل إلى نفسه ، فإن هذا لون من السرقة وضرب من الغش والتزوير .

وفى هذا قال سلفنا : من بركة القول أن يسند إلى قائله . ولهذا نجد كتب السلف المتقدمين موثقة بالأسانيد التى عن طريقها وصلت الآراء والأقوال فى مختلف العلوم . ولم يكن الإسناد فى الحديث وعلوم الدين وحدها ، بل شمل علوماً أخرى كالتاريخ واللغة والأدب وغيرها .

ومن أمانة العلم أن يقف الإنسان عندما يعلم ، وأن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ، فليس فى العلم خجل ولا كبرياء ، وأن يتقبل أي حقيقة أو فائدة علمية تأتيه ، ولو على يد من هو أقل منه علماً ، أو أصغر سناً ، أو أدنى منزلة .

وحسبه أن رسول الله – ﷺ – سئل أمام الملأ من الناس عن الساعة ، فقال بصريح العبارة : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » وذلك فى حديث جبريل المشهور . وعن أبى هريرة ،أن رسول الله ﷺ قال « أحب البلاد إلى الله مساجدها وأبغض البلاد إلى الله أسواقها » [٢] .

فهذا هو موقف العالم الأمين : ألا يعيب من سأله ، ولا يفتى من استفتاه إلا بما يستيقنه ويتبينه .

أما من أفتى بغير علم ، أو أشار على من يستشيره بغير ما يعتقد ، فقد

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات إلا أبا سعد البقال – أحد رواته – فيه خلاف ، انظر : مجمع الزوائد : ١ / ١٤١ ، والترغيب جـ ١ حديث ٢٠٦ .

(٢) مسلم فى المساجد (٦٧١) وإنما بغضت الأسواق لما يكثر فيها من الطمع والغش والحلف بغير الله ، واللهو عن ذكر الله لا لكراهية التجارة أو البيع والشراء .

خان الأمانة ، واستحق من الله العقوبة . وفى الحديث : « من أفتى (بصيغة المبنى للمجهول) بغير علم كان اثمه على من أفتاه . ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه »[١].

وهكذا تعلم أصحابه – ﷺ – ومن تبعهم بإحسان من علماء الأمة ، فلم يهابوا أن يقولوا : لا ندرى فيما لا يدرون ، وأن يردهم من دونهم إلي الصواب ، فيرجعوا جهرة غير متأففين ، ولا مستكبرين ، وأن يغيروا فتواهم إذا تغير اجتهادهم غير خزايا ولا متحرجين .

يقول الإمام محمد بن سيرين : لم يكن أحد بعد النبى – ﷺ – أهيب لما لا يعلم من أبى بكر ، ولم يكن أحد بعد أبى بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد لها من كتاب الله تعالى أصلاً ، ولا فى السنة أثراً ، فقال : أجتهد رأيى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمنى ، وأستغفر الله[٢].

وهذا عمر أمير المؤمنين ترده امرأة ، وهو يخطب على المنبر فى شأن صداق النساء ، فلا يستنكف أن يخطئ نفسه على مرأى ومسمع من الناس قائلا : كل الناس أفقه من عمر[٣]!

وأفتى عمر فى المسألة المعروفة في الميراث بـ (الحمارية) ، أو (المشتركة) فى سنة فلم يشرك فيها ، فلما كان العام المقبل شرك فيها ، فلما قيل له فى ذلك قال : تلك على ما قضينا ، وهذى على ما نقضى . رواه الترمذى .

وهذا أمير المؤمنين (على) أقضى الأمة ، وحلاَّل المعضلات ، والبحر الذى لا تكدره الدلاء ، يقول : لا يستحيى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم ، وإذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم .

---

(١) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٧) والحاكم عن أبي هريرة .

(٢) ابن سعد وابن عبد البر فى العلم كما فى كنز العمال جـ ١ حديث رقم (١٤١٩).

(٣) ذكرها ابن كثير فى التفسير (١ /٤٦٧ طبعة الحبى) ونسبها إلى أبى يعلى وقال : إسناده جيد وقوى .

وسئل يومًا عن مسألة فقال : لا علم لى بها . ثم قال : وابردها على الكبد، سئلت عما لا أعلم ، فقلت : لا أعلم [١] .

وسأله رجل عن مسأله فأجابه ، فقال الرجل : ليس هكذا يا أمير المؤمنين ، ولكن كذا وكذا ، فقال على :أصبت وأخطأت « وفوق كل ذى علم عليم »[٢] .

٣- التواضع :

ومن أخلاق العلماء : التواضع .

فالعالم الحق لا يركبه الغرور ، ولا يستبد به العُجْب ، لأنه يدرك بيقين أن العلم بحر لا شطآن له ، ولا يصل أحد إلى قراره ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

كما أنه يعلم أن قافلة العلم والعلماء مديدة طويلة ، ضاربة فى أغوار الماضى ، موصوله بالحاضر ، ممتدة فى المستقبل ، وليس هو إلا واحدًا منها ، فلا ينبغى له أن يغمط فضل السابقين ، أو ينكر جهد اللاحقين .

وليس هناك من أحاط بكل شئ علما إلا الله تعالى . أما الإنسان فهو يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء ، ويعرف اليوم ما كان يجهل بالأمس ، ويعرف اليوم ما ينساه فى الغد ، ويعرف الظاهر من الأشياء دون الباطن ، والحاضر دون المستقبل.

وأكثر الناس ادعاء للعلم والمعرفة هم أنصاف المتعلمين ، وأشباههم الذين لا يعرفون من العلم إلا القشور دون اللباب ، والسطوح دون الأعماق .

وأما من اتسع أفقه ، وعمق إدراكه ، فهو يكتشف مع كل حقيقة جديدة أنه يجهل أكثر مما يعلم ، وأن العلم أكبر من أن يحاط به ، وكفى بهذا الاعتراف علما .

يقول الإمام الشافعى :

كُلَّما أدبنى الدهـــر أرانى نقص عقلى

أو أرانى ازددت علمًا زادنى علمى بجهلى !

---

(١) كنز العمال جـ ١ حديث رقم (١٤٣٧) .

(٢) نفسه رقم (١٤٣٦) وقال : رواه ابن جرير وابن عبد البر فى العلم .

ذكر الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » تحت عنوان (الترهيب من الدعوى فى العلم والقرآن) ما رواه الشيخان عن أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال : « قام موسى عليه الصلاة والسلام خطيباً فى بنى إسرائيل ، فسئل : أى : الناس أعلم فقال : أنا أعلم ، فعتب الله عليه ، إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه : أن عبداً من عبادى بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال : يا رب : كيف به ؟ فقيل له : احمل حوتاً فى مكتل [1] فإذا فقدته فهو ثم ... فذكر الحديث فى اجتماعه بالخضر ... إلى أن قال : فانطلقا يمشيان علي ساحل البحر ، ليس لهما سفينة ، فمرت بهما سفينة فكلموهم أن يحملوهما فعرف الخضر فحملوهما بغير نول [2] ... فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر نقرة أو نقرتين فى البحر ، فقال الخضر : يا موسى ، ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور فى هذا البحر » ! والعلم فى هذه العبارة الأخيرة بمعنى المعلوم .

وهذا ما أراد عبد الله الخضر أن يؤكده لكليم الله موسى عليه السلام : أن علم البشر لا يعد شيئاً يذكر بالنسبة إلي علم الله تعالي .

وهذا ما جعل فحول العلماء من فرسان علم الكلام ، الذين حصلوا أفكار المتقدمين والمتأخرين ، والذين حاولوا يوماً ما الغوص إلي كنه الحقائق الكبرى ، فلم يحصلوا فى النهاية على طائل ، وهلك منهم الظهر ، وانقطع بهم الطريق ، وقال في ذلك قائلهم وهو فخر الدين الرازى إمام المتكلمين فى عصره ، وصاحب التفسير الكبير ، والكتب المشهورة فى الكلام والأصول :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم

ما للتراب وللعلوم ، وإنما يسعى ليعلم أنه لا يعلم ؟

وقد روى مثل هذا عن عدد من الكبار مثل الباقلانى وإمام الحرمين والشهرستانى وغيرهم .

---

(١) مكتل بوزن منبر – وعاء يشبه الزنبيل يسع ١٥ صاعاً .

(٢) أى بغير أجر ينال ويعطى .

وقد جاء فى الحديث ذم أولئك المدعين المغرورين المنتفخين بما قرؤوا ، أو حصلوا من علم . ولو كانوا علماء حقاً لعرفوا قدر أنفسهم . وأنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا . بل أقل من القليل .

عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يظهر الإسلام حتى تختلف التجار فى البحار ، وحتى تخوض الخيل فى سبيل الله ، ثم يظهر قوم يقرؤون القرآن يقولون : من أقرأ منا ؟ من أعلم منا ؟ : من أفقه منا ؟ » ثم قال لأصحابه : « هل فى أولئك من خير ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال أولئك منكم من هذه الأمة ، أولئك هم وقود النار [1] » .

وإذا رزق العالم التواضع ، وقف عند حده ، وأنصف غيره ، وعرف له حقه، ولم يتطاول على الناس بالادعاء الباطل .

روى أبو عمر بن عبد البر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس قال : لما حج أبو جعفر المنصور دعانى ، فدخلت عليه فحدثته ، وسأل فأجبته ، فقال : إنى قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها - يعنى الموطأ - فتنسخ نسخاً .، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ، لا يتعدوها إلى غيرها ، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث ، فإنى رأيت أصل هذا العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

قال : فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به ، من اختلاف الناس : أصحاب رسول الله - ﷺ - وغيرهم، وإن ردهم عما اعتقدوه شديد ، فدع الناس وما هم عليه ، وما اختار كل بلد لأنفسهم .

---

(١) قال المنذرى فى الترغيب حديث رقم (٢٢٩) : رواه الطبرانى فى الأوسط ، والبزار بإسناد لا بأس به وعزاه الهيثمى إلى الطبرانى فى الأوسط والبزار ورجال البزار موثقون مجمع الزوائد : (١ / ١٨٦) . ورواه أبو يعلى والبزار والطبرى أيضاً من حديث العباس بن عبد المطلب . وذكر المنذرى حديثاً آخر عن ابن عباس مرفوعا يعد شاهداً له . وقال فيه : رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن إن شاء الله تعالى .

فقال أبو جعفر : لعمرى لو طاوعنى علي ذلك لأمرت به ، قال أبو عمر بعد ذكر هذه القصة : وهذا غاية فى الإنصاف لمن فهم [١].

وروى بسنده إلي عبد الرحمن بن القاسم أنه قال لمالك : ما أعلم أحداً أعلم بالبيوع من أهل مصر . فقال له مالك : وبم ذلك ؟ قال : بك . قال : فأنا لا أعرف البيوع فكيف يعرفونها بى ؟! [٢].

هذا هو موقف العلماء حقًا : تواضع لله ، وإنصاف من النفس ، وتقدير لموقف الآخرين ، والتماس الأعذار لهم .

روي مسلم عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ - قال : « إذا سمعت الرجل يقول هلك الناس ، فهو أهلكُهم » [٣].

وذلك إذا دلت حاله على أنه يقول ذلك إعجاباً بنفسه ، وتيهًا بعلمه أو عبادته ، واستصغاراً لشأن الآخرين ، وازدراء لما هم عليه .

وقد رويت كلمة (أهلكهم) بضم الكاف وفتحها ، ومعناها علي الضم ، أنه أشدهم هلاكًا ، أو أحقهم بالهلاك ، أو أقربهم إليه ، لذمِّه للناس وذكره عيوبَهُم ، ونسيانه عيوب نفسه ، وتكبره عليهم . وأما بالفتح فهو فعل ماض « أهلكهم » ، أى جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا حقيقة ، أو أهلكهم ، لأنه أقنطهم من رحمة الله ، وأيأسهم من غفرانه .

قال الغزالى : إنما قاله ، لأن هذا القول يدل على أنه مزدر لخلق الله ، مغتر بالله آمن من مكره ، غير خائف من سطوته ، وقهره ، حيث رأى الناس هالكين ورأى نفسه ناجيًا ، وهو الهالك تحقيقًا مهما رأى ذلك . ويكفيه شراً احتقار الغير . فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلي الله بالدنو منه، وهو متمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، بأنه يترفع عن مجالستهم ، فما أجدره بالهلاك [٤].

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ ١ ص ١٥٩ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) رواه مسلم فى البر والصلة (٢٦٢٣) .

(٤) فيض القدير : ١ / ٣٧٨

٤- العـــزة :

ومن أخلاق العلماء : العزة التى هى من أخص فضائل المؤمنين ﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [المنافقون : ٨] ، والعلماء هم صفوة المؤمنين .

والعزة شئ غير الغرور أو العجب أو الكبر ، وهى لهذا لا تنافى فضيلة التواضع التى تحدثنا عنها .

هى عزة فى مواجهة المستكبرين بالسلطان ، أو المتعالين بالثروة ، أو المزهوين بالقوة ، أو المفاخرين بالنسب ، أو المكاثرين بالعدد ، أو غير ذلك من أعراض الدنيا .

فهى عزة بالعلم والإيمان ، وليست عزة الإثم والعدوان ، عزة تلتمس من الله ولا تطلب من الناس ، ولا عند أبواب السلاطين ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا** ﴾ [فاطر : ١٠] .

سأل الحجاج خالد بن صفوان : من سيد البصرة ؟ فقال له : الحسن البصرى فقال : وكيف وهو مولى ؟ أى ليس من قبائل العرب ذوى الحسب . فقال : احتاج الناس إليه فى دينهم ، واستغنى عن الناس فى دنياهم ، وما رأيت أحداً من أشراف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول فى حلقته إليه . يستمع قوله ويكتب علمه قال : هذا والله السؤدد (١) .

والاستغناء شعور قبل أن يكون ملْكًا لأشياء ، فإن من الناس من يملك القناطير المقنطرة ، وهو فقير النفس ، ممدود اليد إلى الغير ، وآخر صفر اليدين ، وهو يشعر بأنه أغنى من قارون . وفى الحديث : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس »(٢) . وهو الذى عبر عنه أبو فراس الحمدانى فى قصيدة له حين قال :

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب حاف!
ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فبعض شئ كاف!

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ٧٤ و ٧٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة . اللؤلؤ والمرجان : (٦٢٤) .

هذا الغنى النفسى هو الذى صوره الإمام الشافعى فى أبيات رائعة من شعره القوى العميق حيث يقول :

أمطرى لؤلؤًا جبال سرنديب وفيضى آبار تبريز تبرا!
أنا إن عشت لست أعدم قوتًا وإذا مت لست أعدم قبرا!
همتى همة الملوك ، ونفسى نفس حر ترى المذلة كفرا!
وإذا ما قنعت بالقوت عُمْرى فلماذا أهاب زيدًا وعمرا؟!

ولما دخل أبو حازم على الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك بطلب منه وسأله فأجابه بقوة المؤمن ، وعزة العالم ، دون مجاملة فى الحق ، ولا مداهنة فى الدين ، فأعجب به الرجل ، وقال له :

هل لك أن تصحبنا – يا أبا حازم – فتصيب منا ونصيب منك ؟ قال : أعوذ بالله ! قال له سليمان : ولم ذاك ؟ قال : أخشى أن أركن شيئًا قليلاً ، فيذيقنى الله ضعف الحياة ، وضعف الممات ... وقال له سليمان : ارفع إلينا حوائجك – قال : تنجينى من النار وتدخلنى الجنة ! قال : ليس ذلك إلىَّ . قال : فما لى إليك حاجة غيرها [1] .

هذه هى عزة العلماء ! عزتهم لأنهم يحفظون فى صدورهم كلمات الله ، ويحملون فى أيديهم مصابيح الهداية ، ويملكون فى خزائن قلوبهم أغلى الكنوز، وأثمن الثروات ، وأشرف المواريث ، وهو تراث النبوة ، التى بغيرها يعيش الخلق فى تيه المادية ، وظلام الجاهلية ، وضلالات الأهواء والأوهام . فمن أقوم منهم قيلاً ، وأهدى سبيلاً ؟

ولهذا روى فى الحديث : « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدًا أوتى أفضل مما أوتى فقد استصغر ما عظم الله تعالى »[2] .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه جـ ١ / ١٢٥ .

(٢) قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه الطبرانى من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف .

وإذا كانت النبوة أشرف المواريث التى تنقطع دونها أمانى الخلق ، فإن المرتبة التى تليها فى الشرف والفضل هى رتبة وارثيها ، وهم العلماء .

ويقول عمرو بن العاص : من قرأ القرآن ، فقد أدرجت النبوة بين جنبيه ، إلا أنه لا يوحى إليه !

ومفهوم كلمة « قرأ القرآن » في الحديث ، وفى عرف الصحابة والقرون الأولى لا يعنى مجرد استظهاره ، وحفظ كلماته وحروفه دون تدبر له ، ولا فهم لمعانيه وأسراره ، وأحكامه ، إنما تعنى القراءة : العلم والفقه ، ولهذا كان العلماء يسمونهم (القراء) :

وقال أبو الأسود : ليس شئ أعز من العلم ، الملوك حكام علي الناس والعلماء حكام على الملوك .

أخذ هذا المعنى أحد الشعراء فقال :

إن الأكابر يحكمون على الورى وعلى الأكابر يحكم العلماء!

وهذا هو الوضع الصحيح للعلماء : أن كلمتهم هى العليا ، لأنها قبس من كلمة الله ، هم الموجهون للحياة وللناس ، إلا إذا انقلبت الأوضاع ، ورضى العلماء أن يسيروا فى ركاب الأمراء . ورحم الله القاضى الجرجانى الذى قال :

ولو أن أهل العلم صانوه صانَهُم ولو عظموه فى النفوس لعُظِّما

ولكن أهانوه فهان ، ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

٥- العمل بمقتضى العلم :

ومن أخلاقيات العلم الأصيلة فى الإسلام : العمل بمقتضى العلم ، علي معنى أن يكون هناك صلة بين العلم والإرادة ، فإن آفة كثير من الناس أن يعلم ولا يعمل ، أو يعمل بضد ما يعلم .

كالطبيب الذي يعرف ضرر مأكول أو مشروب علي صحته ، ولا يفتأ يتناوله استجابة لداعى الشهوة أو العادة . كالأطباء الذين يحاضرون فى أضرار التدخين ، وهم مسرفون فى تعاطيه !

وعالم الأخلاق الذى يرى سلوكًا معينًا رذيلة وهو مقيم عليه ، متماد فيه، وعالم الدين الذى يرى عملاً ما منكرًا ، وقد ينهى الناس عنه ، وهو يقترفه!

إن هذا النوع من العلم النظرى البحت لا يرضى عنه الإسلام . وربما كان الجهل فى تلك الحال خيرًا منه .

إن العلم الحق هو الذى ينير بصيرة صاحبه ، ويجسم أمام عينيه الجزاء ، فيبدو البعيد قريبًا . والغائب حاضرًا ، والآجل ناجزًا ، فتقوى عزيمته على البر والتقوى ، وتضعف رغبته فى الإثم والفجور .

وقد جاء فى حديث أبى كبشة الأنمارى عن النبى – ﷺ – قال :

« إنما الدنيا لأربعة نفر :

١– عبد رزقه الله مالاً وعلمًا ، فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقًا فهذا بأفضل المنازل .

٢– وعبد رزقه الله علمًا ولم يرزقه مالاً ، فهو صادق النية ، يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، فأجرهما سواء .

٣– وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علمًا : يخبط فى ماله بغير علم ، ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقًا ، فهذا بأخبث المنازل .

٤– وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علمًا ، فهو يقول : لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء »[1] .

وهنا نرى أثر العلم واضحًا فى سلوك صاحبه فى ماله ، فهو « يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقًا » فهذا هو الغنى الشاكر ، وهو بأفضل المنازل كما جاء فى الحديث .

---

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٣١) والترمذى فى الزهد (٢٣٢٦) واللفظ له وقال : حديث حسن صحيح . الترغيب حديث رقم (٢٠) .

فإذا حرم المال ورزق العلم عاش والخير ملء جوانحه ، لا يمارسه عملاً ، ولكن يعيشه نية وأملاً . فهو بنيته ، فأجره وأجر الغنى الشاكر سواء .

فأما من حرم العلم ، سواء رزق المال أم لا ، فعاقبته ما ذكر الحديث الشريف : أخبث المنازل . سواء عاش فى السوء أم بنيته .

والعلم هنا ليس تحصيل معلومات سطحية من هنا وهناك ، ولكنه نور يقذفه الله فى قلب عبده ، فيمنحه اليقين والرسوخ ، ويبعد به عن القلق والاضطراب ، وهذا هو العلم النافع .

العلم النافع حقًا هو الذى يرى الناس أثره على صاحبه : نورًا فى الوجه، وخشية فى القلب، واستقامة فى السلوك، وصدقًا مع الله، ومع الناس، ومع النفس.

أما مجرد التشدق بالكلام المزوق، والثرثرة بالقول المعسول من طرف اللسان، دون أن يصدق القول العمل، فهذا هو شأن المنافقين الذين يقولون مالا يفعلون، ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، ويقرؤون الأحاديث.

وهو ما أنكره القرآن على بنى إسرائيل : ﴿ **أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ [البقرة: ٤٤].

كأنما يشير القرآن أن مناقضة العلم للعمل، والقول للفعل، ضرب من الجنون، أو لون من الفصام الذى لا يليق بالعقلاء. وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الصف: ٢، ٣]

ومن قرأ الأحاديث النبوية فى هذا الباب ينخلع قلبه من هول الوعيد الذى يتهدد هذا الصنف من حملة العلم، الذين سماهم الإمام الغزالى : « علماء الدنيا » .

عن أسامة بن زيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة

فيلقى فى النار، فتندلق أقتابه [١]، فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان، ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؟! فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه» [٢].

وعن أنس: وإنى سمعته يقول - يعنى النبى ﷺ - «مررت ليلة أسرى بى بأقوام تقرض شفاهم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون» [٣].

هؤلاء الذين يُحسنون الكلام ولا يحسنون العمل، ويتنسبون إلى العلم ولا يقومون بحقه. يكونون فتنة على الأمة، لأنهم موضع القدوة.

وهناك صنفان إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، الأمراء والعلماء [٤]. ورحم الله الشاعر الذى قال:

يا أيها العلماء يا ملح البلد ما يصلح الملحَ إذا الملحُ فسد؟!

وهذا ما كان يخافه النبى ﷺ على أمته، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: حذرنا رسول الله - ﷺ - كل منافق عليم اللسان [٥].

وعن عمران بن حصين عن النبى ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم اللسان» [٦].

وعن على بن أبى طالب مرفوعًا: «إنى لا أتخوف على أمتى مؤمنًا ولا مشركًا. فأما المؤمن فيحجره إيمانه، وأما المشرك فيقمعه كفره،

---

(١) أقتابه: أمعاؤه ... وتندلق: تخرج من مكانها.

(٢) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (١٨٨٢). (٣) رواه أحمد (٣/ ١٢٠).

(٤) روى هذا مرفوعا من حديث ابن عباس بسند ضعيف، أخرجه ابن عبد البر، وأبو نعيم فى الحلية، كما قال العراقى فى تخريج الإحياء.

(٥) قال الهيثمى فى «المجمع» (١/ ١٨٧): رواه الزار، وأحمد، وأبو يعلى ورجاله موثقون. وقال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. انظر: الحديث (١٤٣) و(٣١٠) من المسند.

(٦) رواه الطبرانى فى الكبير، والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح المجمع (١/ ١٨٧) كما فى «الترغيب» حديث (٢٢٤).

ولكن أتخوف عليكم منافقًا عالم اللسان. يقول ما تعرفون ويعمل ما تنكرون »[1].

وعن جابر قال: قال رسول الله - ﷺ - « العلم علمان: علم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم »[2].

فعلم المرء إما حجة له - وذلك إذا عمل به - وإما حجة عليه إذا أصبح مجرد حامل له شأن اليهود الذين حُمِّلوا التوراة كلامًا، ولم يحملوها عملاً والتزامًا، فكانوا كما قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥] أو كذلك الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها، ولم يرتفع بها من حضيض المادية في التفكير والحيوانية في السلوك، ﴿ **وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ** ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ومن ثم كان رسول الله - ﷺ - يستعيذ بالله من العلم الذى لا ينفع وهو العلم الذى ينفصل عن الأخلاق، لأنه يصبح وبالاً على صاحبه، وقد يكون وبالاً على من حوله كذلك.

فعن زيد بن أرقم أن رسول الله - ﷺ - كان يقول: (اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها »[3].

هذا النوع من العلماء الذين تكذب أفعالهم أقوالهم، وسريرتهم

---

(١) قال فى (الترغيب) رقم (٢٢٣)، رواه الطبرانى فى الصغير، والأوسط من رواية الحارث وهو الأعور - وقد وثقه ابن حبان وغيره. ا هـ، والحارث ضعيف ولكن يشهد له الحديثان قبله.

(٢) قال فى الترغيب (١٣٩): رواه الحافظ أبو بكر الخطيب بإسناد حسن. وابن عبد البر فى كتاب العلم عن الحسن مرسلاً بإسناد صحيح.

(٣) رواه مسلم فى الزهد والدعاء والتوبة (٢٧٢٢).

علانيتهم، يمثلون فتنة لجمهور الناس، لأن الناس يتأثرون بالحال أكثر من التأثر بالمقال، حتى قيل: حال رجل فى ألف رجل أبلغ من مقال ألف رجل فى رجل.

ومهما حاولت أن تقول للناس: خذوا من العالم علمه، ودعوا عمله. أو كما قال الشاعر:

اعمل بعلمى وإن قصرت فى عملى ينفعك علمى ولا يضررك تقصيرى!

فإن الناس لن يسمعوا لك.

وفى هذا روى عن الإمام على رضى الله عنه قوله: «قصم ظهرى رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك. ذاك يغرهم بتنسكه، وهذا يضلهم بتهتكه!» ويزداد خطر هذا الصنف إذا أصبحوا أبواقًا لأمراء السوء، وحكام الجور، يزينون لهم قبيح ما يصنعون، ويجرئونهم بفتاويهم على التمادى فيما هم فيه سائرون.

وهذا ما أفسد الأديان من قبل، وما شكى منه المخلصون المصلحون من بعد يقول الإمام عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدينَ إلا الملوكُ وأحبار سوء ورهبانها

لقد رتع القوم فى جيفة يبين لذى اللب إنتانها

وفى حديث رواه أبو الدرداء مرفوعًا:

«أنزل الله فى بعض الكتب، أو أوحى إلى بعض الأنبياء: قل للذين يتفقهون لغير الدين، ويتعلمون لغير العمل، ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة، يلبسون للناس مسوك الكباش (جلود الضأن) وقلوبهم كقلوب الذئاب، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر. إياى يخادعون، وبى يستهزؤون: بى حلفت لأتيحن لهم فتنة تذر الحليم فيهم حيران [1].

---

(١) «جامع بيان العلم» ج ١ ص ٢٣١/٢٣٢.

الحرص على نشر العلم:

ومن أخلاق العلماء: الحرص على نشر العلم وتبليغه ونفع الناس به، فلا خير فى علم يكتم، كما لا خير فى مال يكنز، فإنما جعل العلم لينشر، كما جعل المال لينفق.

وكان النبى - ﷺ - يحض أصحابه على تبليغ ما يسمعونه منه، لينتفع به من بعدهم زمانًا، ومن وراءهم مكانًا، ففى حجة الوداع ألقى بيانه العظيم عن الإسلام ثم قال فى ختامه: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب»، (متفق عليه من حديث أبى بكرة).

وفى حديث عبد الله بن عمرو، عن النبى - ﷺ -: «بلغوا عنى ولو آية» رواه البخارى فى صحيحه باب ما ذكر عن بنى إسرائيل.

وروى ابن مسعود مرفوعًا «نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» (١).

وعن زيد بن ثابت مرفوعًا: «نضر الله امرءًا سمع منا حديثًا فبلغه غيره، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه» (٢).

وهذه الأحاديث وما فى معناها هى التى جعلت الصحابة - رضى الله عنهم - يحرصون على تبليغ ما يحملون فى صدورهم من علم النبوة، حتى إن أبا ذر نهاه الخليفة الثالث عثمان عن الفتيا، ولكنه - رغم إيمانه بوجوب طاعة الإمام - رأى أن طاعته فى هذا الأمر خاصة غير ملزمة، لأن أمر الرسول بالتبليغ أقوى من نهى الإمام عن الفتيا.

---

(١) رواه الترمذى فى العلم (٢٦٥٩) وقال: حديث حسن صحيح، وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٦٦) ومعنى نضره: جملة وزينه من النضرة وهى البهجة والحسن كما فى الترغيب حديث ١٥٠.

(٢) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٦٠) والترمذى فى العلم (٢٦٥٨) وقال: حديث حسن وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٦٧).

ولما اجتمع عليه الناس فى موسم الحج يستفتونه وقف عليه رجل من قريش، ثم قال له: ألم تُنه عن الفتيا؟

فرفع رأسه إليه فقال: أرقيب أنت علىّ؟ لو وضعتم الصمصامة (يعنى السيف الصارم الذى لا ينثنى) على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أنى أنفذ كلمة سمعتها من النبى - ﷺ - قبل أن تجهزوا علىّ لأنفذتها»[1].

ويقوى موقف أبى ذر: الآيات والأحاديث التى حذرت أبلغ التحذير من كتمان العلم، واحتجازه عمن ينتفع به من الناس وخصوصًا عند الطلب والسؤال.

وكان أبو هريرة يقول: إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيتان فى كتاب الله ما حدثت حديثا. ثم يتلو: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

ومثلهما قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وروى أبو هريرة عن النبى - ﷺ - قال: «من سُئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»[2].

---

(١) رواه البخارى معلقا فى كتاب العلم من صحيحه. وقال الحافظ فى الفتح ١ / ١٧٠: رويناه موصولاً فى مسند الدارمى وفى الحلية. ومعلوم أن ما علقه البخارى بصيغة الجزم له حكم الصحة لدى جمهور العلماء.

(٢) رواه أبو داود فى العلم (٣٦٥٨) والترمذى فى العلم (٢٦٥١) وحسنه، وابن ماجه فى المقدمة (٢٦١) وابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٩٥)، الترغيب / حديث (١٩٩).

ونحوه من حديث ابن عباس أيضًا [1].

ومن حديث عبد الله بن عمرو: «من كتم علمًا ألجمه الله ...» الحديث[2].

قال الإمام ابن الأثير فى «جامع الأصول»:

الممسك عن الكلام ممثَّل بمن ألجم نفسه بلجام.

والمعنى: أن الملجم نفسه عن قول الحق والإخبار عن العلم، يعاقب فى الآخرة بلجام من نار.

وذلك فى العلم الذى يلزمه تعليمه إياه، ويتعين عليه فرضه، كما رأى كافرًا يريد الإسلام فيقول: علمونى: ما الإسلام؟ وما الدين؟ وكمن جاء مستفتيًا فى حلال، أو حرام، فيقول: أفتونى، أرشدونى، فإنه يلزم فى مثل ذلك أن يعرف الجواب، فمن منعه استحق الوعيد، وليس الأمر كذلك فى نوافل العلم التى لا يلزم تعليمها [3].

وإنما قال ابن الأثير ما قال، لأن وقت العالم وجهده لا يتّسعان لتبليغ كل علم وإجابة كل سائل، فحاجة المتعلم، وأهلية العالم، وطاقته، وأهمية الموضوع، ووجود من يقوم بالأمر عداه أو عدمه، كل هذا يحدد: متى يجب الجواب ومتى لا يجب.

وإنى ألمح فى الحديث أن الوعيد إنما هو لمن ألجم نفسه عن الكلام، أى:

---

(١) رواه أبو يعلى، ورواته ثقات يحتج بهم فى الصحيح والطبرانى فى الكبير والأوسط بسند جيد الترغيب (٢٠١) كما قال الهيثمى فى المجمع (١/١٦٣) ولم يذكر الأوسط.

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٩٦) والحكام وقال: صحيح لا غبار عليه. الترغيب حديث ١٠٠ وذكر المنذرى أن حديث الوعيد على كتمان العلم قد روى عن جماعة من الصحابة غير من ذكر منهم.

(٣) جامع الأصول ج ٨ ص ١٢ حديث رقم (٥٨٣٧).

تعمد السكوت طمعًا أو خوفًا من الناس وبهذا يكتم الشهادة ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وهذا ما أنكره القرآن على أهل الكتاب ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

على أن نوافل العلم أيضًا يلزم نشرها، وتبليغها لأهلها بأى وسيلة من وسائل النشر والتبليغ شفاهًا أو كتابة، فالقلم أحد اللسانين، ولا سيما إذا جاء من يطلبها حرصًا عليها ورغبة فيها، فلا يسع من يحملها إلا أن يؤديها كما أديت إليه، حتى يتوارث العلم ويحيا.

وهذا من فروض الكفاية.

وقد يتعين على بعض العلماء لأهليته الخاصة للإفادة.

ولهذا كان بعض الصحابة يبلغون بعض أحاديث سمعوها من رسول الله ﷺ وخشوا أن يفهمها الناس على غير وجهها، فيخبرون بها فى اللحظات الأخيرة من حياتهم تأثما، وتحرجًا، أن يموتوا فتموت الحقيقة العلمية معهم. فعن أبى أيوب الأنصارى أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم حديثًا سمعته من رسول الله - ﷺ - وسوف أحدثكموه وقد أحيط بنفسى سمعته يقول «لولا أنكم تذنبون لذهب الله بكم وخلق خلقًا يذنبون فيغفر الله لهم»(١).

وعن أنس بن مالك أن رسول الله - ﷺ - ومعاذ رديفه على حمار قال: «يا معاذ بن جبل»: قال: لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثًا - قال: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على

---

(١) أخرجه مسلم فى التوبة حديث رقم (٢٧٤٨)، والترمذى فى كتاب الدعوات (٣٥٣٣) وروى مسلم نحوه من حديث أبى هريرة أيضًا رقم (٢٧٤٩).

النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: «إذن يتكلوا...» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً [1].

وهكذا كان تلاميذ الصحابة ومن تبعهم بإحسان أحرص الناس على نشر العلم وتعليمه ومدّ أشعته فى الناس، فإذا لم يجدوا من يأخذ عنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، أو فكروا فى الرحيل إلى بلد آخر.

قال عطاء: دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكى فقلت: ما يبكيك؟ قال: ليس أحد يسألنى عن شئ!

وحكوا عن سفيان الثورى: أنه لما قدم عسقلان مكث لا يسأله إنسان ... فقال: اكروا لى، (أى راحلة) لأخرج من هذا البلد. هذا بلد يموت فيه العلم.

وذكر ذلك الغزالى فى «الإحياء» ثم قال: إنما فعل ذلك حرصاً على فضيلة التعليم واستبقاء العلم به.

مسائل وملاحظات تتعلق بكتمان العلم ونشره:

وهنا عدة مسائل «تتعلق» بكتمان العلم ونشره، ينبغى لنا أن نعرض لها، ونلقى بعض الضوء عليها.

متى يجوز حجب بعض المعلومات؟

الأولى: إن من حق العالم أن يحجب بعض المعلومات عن بعض الناس، لمصلحة يراها ولو سئل عنها، لما يترتب على بثها من ضرر أكبر من نفع العلم بها.

وقد يدع الجواب عن مسألة تأديباً للسائل المتعنت، أو إرشاداً له إلى الاشتغال بما هو أهم وأنفع، أو غير ذلك من الاعتبارات.

---

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان: (٢٠).

وفى الصحيح: «كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع»[1].

وعن أبى هريرة قال: حفظت من رسول الله - ﷺ - وعائين فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم[2] يكنى بذلك عن القتل.

قال الحافظ ابن حجر: حمل العلماء الوعاء الذى لم يبثه على الأحاديث التى فيها تعيين أسامى أمراء السوء وأحوالهم وزمنهم.

وقد كان أبو هريرة يكنى عن بعضه ولا يصرح به خوفًا على نفسه منهم كقوله: «أعوذ بالله من رأس الستين، وإمارة الصبيان» يشير إلى خلافة يزيد، وقد استجاب الله له فمات قبلها بسنة[3].

حكم إعارة الكتب:

الثانية: قال بعض العلماء: يشمل الوعيد - على كتمان العلم - حبس الكتب عن الطالب لا سيما عند عدم التعدد. قال: والابتلاء بهذا كثير[4] اهـ.

ومقتضى هذا وجوب إعارة الكتب لطلاب العلم إذا احتاجوا إليها، ذلك

---

(١) رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (٥). (٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٢٠).

(٣) نقل الحافظ أيضا عن ابن المنير قوله: جعل الباطنية هذا الحديث ذريعة إلى تصحيح باطلهم، حيث اعتقدوا أن للشريعة ظاهراً وباطناً، وذلك الباطن إنما حاصله الانحلال من الدين، قال: وإنما أراد أبو هريرة بقوله: «قطع ...» أى قطع أهل الجور رأسه إذا سمعوا عيبه لفعلهم، وتضليله لسعيهم، ويؤيد ذلك أن الأحاديث المكتومة لو كانت من الأحكام الشرعية، ما وسعه كتمانها، لما ذكره فى الحديث الأول من الآية الدالة على ذم من كتم العلم وقال غيره: يحتمل أن يكون أراد - مع الصنف المذكور - ما يتعلق بأشراط الساعة وتغير الأحوال والملاحم فى آخر الزمان، فينكر ذلك من لم يألفه، ويعترض عليه من لا شعور له به» أ هـ «الفتح» ج ١ / ٢٢٧ طبعة الحلبى.

(٤) نقله العلامة القارى فى شرح «المشكاة» عن السخاوى فى «المقاصد الحسنة» انظر المرقاة ح ١ / ٢٣٥.

لأن منعها – فيما أرى – يدخل أيضًا فى باب منع الماعون، المتوعد عليه بالويل فى كتاب الله. وهو أيضًا أشبه بكنز المال، وعدم الإنفاق منه فى سبيل الله، وفيه من الوعيد ما فيه. ولكن وجوب هذا فى رأيى مقيد بشروط:

(١) أن يكون طالب الكتاب فى حاجة حقيقية إليه لا يغنى عنه غيره.

(٢) ألا توجد مكتبات عامة يمكنه استعارة الكتاب منها خارجيًا أو داخليًا.

(٣) ألا يستطيع شراء الكتاب، لعدم وجوده فى السوق، أو لعجزه عن شرائه.

(٤) ألا يكون معروفًا بالإهمال وإضاعة الكتب أو تعريضها للتلف.

(٥) ألا يكون صاحب الكتاب فى حاجة إليه، لأن حاجته مقدمة على حاجة غيره. وفى الحديث: «ابدأ بنفسك» وفى آخر «ابدأ بمن تعول».

حق التأليف والنشر:

الثالثة: ذهب بعض العلماء فى عصرنا إلى أن من موجب الكتمان المحرم أن يمنع المؤلف نشر كتابه إلا بإذن منه، وتعاقد معه، وأخذ أجرة عليه، وإنما يجب أن يمنحه لمن شاء طبعه، ونشره دون حجر ولا احتكار، وبغير مقابل.

وأنكروا ما اصطلح الناس فى عصرنا على تسميته حقوق التأليف أو النشر أو التوزيع وهذه قضية هامة وعامة، تحتاج إلى تمحيص وتحقيق، لم أفرغ له.

ويشبه الكلام فى هذا الموضوع – إلى حد كبير – ما ثار من جدل قديم بين الفقهاء حول القربات الدينية وأخذ الأجرة عليها مثل: الأذان والإمامة فى الصلوات، وخطبة الجمعة، والوعظ والتذكير بالمساجد، ونحوها، مما هو فى الأصل واجب دينى يجب على المسلم أن يفعله احتسابًا، ويقوم به من غير مقابل مادى، تقربًا إلى الله تعالى بأداء الواجب.

وقد انتهى هذا الجدل والخلاف باتفاق المتأخرين من علماء المذاهب على جواز أخذ الأجرة، لتغير الزمان، وخوفًا على هذه الأعمال الدينية أن تتعطل، ولا تجد من يتطوع للقيام بها، فاقتضت مصلحة الدين وعمارة بيوته واستمرار إقامة شعائره، إباحة أخذ الأجرة.

على أن مما يجب التنبيه عليه هنا جملة أمور:

أولاً: أن الكتاب ملك لمؤلفه، ولهذا ينسب إليه، ويحسب عليه، ويحاسب على أخطائه. وملكيته هنا ملكية علمية أدبية. وهو أمر اعترف به العالم كله في قوانينه المدنية.

ولا ريب أن من ملك شيئًا أصبح حر التصرف فيه، وأصبح من حقه الانتفاع بثمراته، وهذه من لوازم الملكية. فإذا كان من يملك بيتًا له الحق أن يسكنه أو يؤجره أو يبيعه، فكذلك من يملك كتابًا.

ثانيًا: أن الكتاب العلمي لا يأتي عفوًا، وإنما هو ثمرة كفاح طويل، كون به صاحبه شخصيته العلمية، ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق بالنهار لا يعرفه إلا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز إلى حيز الوجود، أو قل حتى تأتي ساعة المخاض، فهو إذن كسب من وراء عمل طويل مختزن في كتابه، كما أن المصنع أو العمارة ثمرة جهد طويل. اختزنه فيها منشئ المصنع أو صاحب العمارة.

ثالثا: أن حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة سائر الناس، إنها حياة تتطلب جهدًا خاصًا زائدًا على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصة زائدة أيضًا على نفقات الآخرين.

فالعالم المؤلف يحتاج إلى مكتبة غنية بالمصادر المهمة ويحتاج إلى من يساعده في النقل أو التبييض أو الطباعة، ويحتاج لمن يساعده في شؤون أسرته حيث لا يمكنه أن يتفرغ لأمورهم ورعايتهم، كما يتفرغ سائر الناس. وبدون هذا لا يستطيع أن ينتج علمًا حقيقيًا. فأنى له أن يغطي هذه النفقات، وإن كان

موظفًا فى جامعة أو وزارة أو مؤسسة، إن لم يكن له من مؤلفاته ما يعطيه بعض العوض؟.

رابعًا: أن المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره أشياء تقتضيه أن يضيف أو يحذف أو يعدل، بناء على اطلاع جديد أو تغير اجتهاد أو اقتراح مقبول، أو غير ذلك.

فإذا لم يعلم الطابع أو الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات، وتنقيحات فإنه سينشر الكتاب على ما كان عليه، ويلزم المؤلف ما لم يعد يلتزمه.

وقد كان علماؤنا قديمًا لا يستبيحون رواية كتاب عالم ما إلا (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماء يعطى بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين. وأحيانا يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها.

وهذه الإجازة تشبه حق الطبع أو النشر فى زمننا، أضيف إليها عنصر جديد وهو: أن المؤلف يتقاضى أجرًا على جهده فى التأليف، ويشارك الناشر فى جزء من الربح الذى يصيبه من وراء نشر الكتاب.

ولكن الأمر الذى يجب تأكيده والتشديد فيه حقًا هو ألا يستغل الناشرون والمؤلفون حاجة القراء إلى كتاب ما، فيغالوا فى سعره، كما فى كثير من الكتب الجامعية، والكتب التى يقبل عليها الجمهور، فزيادة الأسعار بما لا يتغابن الناس فى مثله غير مشروع.

* * *

التّعلّم وآدابه

ضرورة التعلم:

يولد الإنسان غفلاً من العلم، ولكن الله سبحانه وتعالى فطره على حُبِّ المعرفة واستطلاع ما يجهل، ووهب له من أدوات العلم ما يستطيع به أن يعرف نفسه ويطل على الوجود من حوله، يقول الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [النحل: ٧٨].

وبهذا استطاع الإنسان أن يتعلم، ويكتشف سنن الكون وحقائق الوجود عن طريق السمع والرواية، وعن طريق البصر والملاحظة، وعن طريق الفؤاد والتفكير. وهي الوسائل التي استودعها الله الإنسان، وسيسأل عنها أمام الله تعالى: ﴿ **وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وبهذه الوسائل يتمكن الإنسان أن يكتسب علم الدنيا، وأن يحصل علم الدين، إذا شحذ همته لطلب العلم، ولم تشغله شواغل الدنيا عن التعلم.

هكذا قضت سنة الله: أن السماء لا تمطر على الإنسان علمًا، وهو قاعد في بيته، إنما يدرك العلم مَن طلبه، وعانى في تحصيله.

وهذا ما نطق به الحديث النبوي الشريف: «يا أيها الناس تعلموا. إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (١).

---

(١) قال الحافظ في «الفتح» ج ١ ص ١٧٠: أورده ابن أبي عاصم، والطبراني من حديث معاوية وإسناده حسن، لأن فيه مبهمًا، اعتضد بمجيئه من وجه آخر، وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفًا، ورواه أبو نعيم الأصبهاني مرفوعًا. وفي الباب عن أبي الدرداء وغيره، فلا يغتر بقول من جعله من كلام البخاري ا هـ.

ولا يجوز للمسلم أن يعيش مقطوع الصلة بالعلم، فمن لم يكن عالمًا، فيكن متعلمًا، ومن لم يكن متعلمًا فليكن مستمعا، وإلا فليكن محبًا لهؤلاء، وذلك أضعف الإيمان.

عن أبى بكرة قال: سمعت النبى ﷺ يقول: «اغد عالما أو متعلمًا أو مستمعًا، أو محبًا، ولا تكن الخامسة فتهلك» قال عطاء: قال لى مسعر: «زدتنا خامسة لم تكن عندنا، والخامسة أن تبغض العلم وأهله» (١).

ما يجب على كل مسلم تعلمه:

حث الرسول ﷺ على التعلم أعظم الحث، ورغب فيه كل الترغيب، حتى جعله فريضة لازمة، وذلك في الحديث الذى اشتهر على الألسنة، حتى حفظه الكبير والصغير والخاص والعام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٢).

أى: على كل إنسان مسلم ذكرا كان أم أنثى، ولهذا يرويه جمهور الناس ... على كل مسلم ومسلمة، والمعنى صحيح، ولكن اللفظ لم يرد.

ولكن ما العلم الذى جعل الحديث طلبه فرضًا على كل مسلم؟

قد تباينت الأقوال وتناقضت الآراء، فى هذا العلم المفروض على نحو عشرين قولاً، كما يقول العلامة المناوى - فكل طائفة تقيم الأدلة على فرضية علمها هى، وكل لكل معارض، وبعض لبعض مناقض.

---

(١) رواه الطبرانى فى معاجمه الثلاثة والبزار ورجاله موثقون كما فى مجمع الزوائد ج ١/ ١٣٢.

(٢) رواه ابن ماجه فى المقدمه (٢٢٤)، وابن عبد البر فى العلم، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث أنس، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود، وفى الأوسط عن ابن عباس، وأبى سعيد وغيرهم وفى طرقه كلها مقال، لذا ضعفه ابن القطان وابن عبد البر والنووى، وغيرهم لكن قال الأخيران: معناه صحيح، لكن قال الزركشى فى اللآلئ: روى من طرق تبلغ درجة الحسن، وكذا قال الحافظ المزى وقال السيوطى: جمعت له خمسين طريقا، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثًا لم أسبق لتصحيحه سواه. وقال السخاوى: له شاهد عند ابن شاهين بسند رجاله ثقات عن أنس. أنظر الجامع الصغير أحاديث ٥٢٦٤، ٥٢٦٧ وتعليق المناوى عليها فى فيض القدير ج ٤ ص ٢٦٧/ ٢٦٨.

فمن متكلم يحمل العلم هنا على علم الكلام، ويحتج لذلك بأنه العلم المتقدم رتبة لأنه علم التوحيد، الذى هو أساس البناء.

ومن فقيه يحمله على الفقه، إذ هو علم الحلال والحرام، وبه يعرف المسلم كيف يعبد الله، وكيف يعامل الناس، ويقول: إن ذلك هو المتبادر من إطلاق العلم فى عرف الشرع.

ومن مفسر يرى أن أولى ما يطلق عليه العلم هو العلم بالمراد من كلام الله تعالى بقدر الطاقة البشرية، وهذا هو علم التفسير.

ومن محدث يحمل العلم على معرفة السنن والآثار، والتى بها بيان القرآن، وفيها تفصيل ما أجمل، وتبيين ما أبهم، وتخصيص ما عمم، وتقييد ما أطلق، وهى مع القرآن - حبل النجاة.

ومن نحوى يحمله على علم العربية، إذ الشريعة إنما تتلقى من الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: ٤] فلا بد من إتقان العربية ليعرف البيان المشار إليه فى الآية الكريمة.

ومن متصوف يحمله على علم العبد بحاله، ومقامه من الله عز وجل، أو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، ومداخل الشيطان إليها ... إلخ.

وقال أبو طالب المكى: هو العلم بما يتضمنه الحديث الذى فيه مبانى الإسلام «بُنى الإسلام على خمس ... إلخ» لأن الواجب هذه الخمس. فيجب العلم بكيفية العمل فيها، ويكفيه الوجوب [١].

وهكذا تعددت الآراء، واختلفت الأقوال، ولكل وجهة هو موليها والذى أراه أن العلم الواجب طلبه وتعلمه، عيناً - على المسلم هو ما لا بد له منه فى دينه أو فى دنياه.

أما فى دينه، فلا بد له أن يتعلم من علوم الشرع:

---

(١) انظر: الإحياء ج ١ / ١٤ وما بعدها وفيض القدير ج ٤ / ٢٦٧، ٢٦٨.

١ – ما يعرف به عقيدته معرفة يقينية صحيحة، سالمة من الشركيات والخرافات.

٢ – وما يصحح به عبادته لربه ظاهراً، بأن تكون على الصورة المشروعة، وباطناً بأن تتوافر فيها النية الخالصة لله تعالى.

٣– وما يزكى به نفسه، ويطهر به قلبه، بأن يعرف الفضائل «المنجيات» ليتحراها ويتخلق بها، ويعرف الرذائل «المهلكات» ليتجنبها ويتوقاها.

٤– وما يضبط به سلوكه فى علاقته مع نفسه، أو مع أسرته، أو مع الناس، حكاماً ومحكومين مسلمين وغير مسلمين، فيعرف فى ذلك الحلال من الحرام، والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق. ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر اللازم تحت اسم «التوحيد» أو «الفقه» أو «التصوف» أو «الآداب الشرعية» أو الزهد أو غير ذلك.

فهذه التسميات مصطلحات محدثة، ولم يتعبدنا الله بها، وإنما يهمنا المضمون، ولا عبرة بالأسماء والعناوين، متى وضحت المسميات والمضامين.

وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزامياً، يتعلمه كل مسلم ومسلمة: بالقراءة فى المدارس والمعاهد، وبالسماع فى المساجد، وفي أجهزة الإعلام المختلفة.

وعلي كل دولة تنتسب إلي الإسلام، أن توفر هذا القدر لأبنائها بكل وسيلة مستطاعة، وأن تنتهز كل فرصة لتفقيه أبنائها ما يجب عليهم، مثل فرصة التجنيد فى الجيش أو فى الشرطة.

ويجب على الآباء والأولياء أن يعلموا أولادهم، ومن يلون عليهم، أو يبعثوا بهم إلى المدارس والمساجد والأماكن يتلقون فيها العلم الواجب، ولا يجوز لولى أن يدع موليه فى ظلام الجهل بدينه، دون أن يعلمه أو يهئ له من يعلمه، فضلاً عن أن يمنعه من التعلم إذا أراد.

وذلك أن الحديث الشريف يقول: «مروا أولادكم بالصلاة لسبع،

واضربوهم عليها لعشر» [1] فدل هذا على وجوب تعلم الصلاة – ومثلها الصيام لمن يطيقه – منذ تمام السابعة من العمر : لأن أداء الصلاة غير ممكن إلا بتعلمها بشروطها وأركانها وكيفيتها ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فإذا قصر الأب أو الولى فى تعليم من ولاه الله رعايته ، ولم يعفه ذلك من وجوب التعلم وطلب العلم المفروض عليه ، حين يبلغ الحلم ، ويتحمل مسؤولية نفسه ، فقد رفع القلم عن الصبى حتى يبلغ .

يقول الإمام أبو محمد بن حزم بعد أن بين ما يلزم كل مسلم ومسلمة تعلمه من الطهارة والصلاة والصيام ، وما يحل له ويحرم عليه من المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والفروج ، والدماء ، والأقوال والأعمال :

« فهذا كله لا يسع جهله أحداً من الناس ، ذكورهم وإناثهم ، أحرارهم وعبيدهم وإمائهم . وفرض عليهم أن يأخذوا فى تعلم ذلك من حين يبلغون الحلم ، وهم مسلمون أو من حين يسلمون بعد بلوغهم الحلم .

قال : ويجبر الإمام (رئيس الدولة) أزواج النساء ، وسادات الأرقاء ، على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم ، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم ، وفرض على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يرتب أقواماً بتعليم الجهال » [2] .

وهذا القدر يجب أن يتعلمه المسلم بلغته التى يحسنها ، ولكن يجب عليه أن يتعلم من العربية ما يتلو به أم القرآن في صلاته وما يقرأ به من الآيات ، وما تقوم به الصلاة من التكبيرات والتسبيحات والسلام ، وما يفهم به الأذان والإقامة ونحوها . ومن لم يجد هذا القدر اللازم تعلمه موفوراً في بلده وجب عليه أن يرحل فى طلبه حتى يتعلمه من أهله ولو بالصين .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٨٧) ، وأبو داود فى الصلاة (٤٩٥) من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده . وحسنه النووى فى « الرياض » وصححه شاكر فى تخريج المسند برقم (٦٦٨٩) كما أخرجه الحاكم فى المستدرك ١ / ١٩٧ .

(٢) انظر : الأحكام فى أصول الأحكام لابن حزم – الباب الحادى والثلاثون : في صفة التفقه فى الدين ، وما يلزم كل امرئ طلبه من دينه ص ٦٩ ط . مطبعة الإمام بالقاهرة .

على أن هذا القدر الواجب تعلمه إنما يمثل الحد الأدنى لمعرفة المسلم بدينه فى كل بيئة وكل حال ، ثم هو يتسع ويزداد حسب الأحوال والموجبات الخاصة أو العامة ، فالفقير لا يجب عليه أن يتعلم تفاصيل أحكام الزكاة ، إلا أن يتعلم ما يباح له أخذه من مالها ، إنما يجب عليه أن يتعلم أحكامها إذا ملك مالاً تجب فيه الزكاة .

ولا يفترض عليه تعلم كل الأحكام لكل أموال الزكاة بل ما ملك نصاباً منه تعلم ما يتعلق به . فالتاجر يتعلم أحكام زكاة التجارة والنقود والديون ونحو ذلك : فيم تجب ؟ ومتى تجب ؟ وكم تجب ؟ ولمن تجب ؟ وليس عليه أن يتعلم زكاة الأنعام من إبل وبقر وغنم ، وما يجب فيه بنت مخاض أو بنت لبون ، إذ لا حاجة له فيها .

ومن لا مال له ، ولا استطاعة عنده ، لا يفرض عليه تعلم أحكام الحج ، بل يتعلمه من ملك الصحة الجسمية ، والقدرة المالية ، أى : على نفقات السفر ذهاباً وإياباً ، ونفقات الإقامة فى الأرض المقدسة ، ونفقات من يعوله حتى يعود ، فعندئذ يلزمه تعلم أساسيات الحج والعمرة ، وخاصة عندما يعقد النية، ويدخل فى أشهر الحج . وإذا كان فى المذاهب الفقهية من يرى أن فرض الحج على التراخى ، فالأكثرون يرونه واجباً على الفور ، والحزم فى المبادرة والمسارعة إلى الخيرات .

وهكذا من كان له اختصاص بشئ ، وجب عليه أن يتعلم ما يتصل به من الأحكام ، فالتاجر يلزمه معرفة ما يحل وما يحرم من البيوع ، وأنواع المعاملات والمداينات التى تدخل فى نطاق التجارة ، حتى لا يسقط فى هوة الحرام وهو لا يدرى . وجهله ليس عذراً له .

والطبيب يلزمه معرفة ما يتعلق بمهمته ، كتحريم التداوى بالخمر ، وتحريم الإجهاض ونحو ذلك . والذى تقتضيه مهنته السفر كربان السفينة والطيار ومضيف الطائرة يلزمه تعلم أحكام السفر ورخصه .

المهم أن كل من يحتاج إلى شئ ، لاختصاصه به أو ملابسته له ، يلزمه

تعلمه ومالا فلا . على أن كل إنسان لا يخلو من وقائع فى عبادته أو معاملاته ، تتجدد له ، ولا يعرف حكم الشرع فيها ، فهنا يلزمه السؤال عنها ، بل . ينبغى له المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالبًا [1]، قال تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل : ٤٣] .

ففرض علي كل أحد طلب ما يلزمه .

هذا ما لا بد منه للمسلم فى دينه ، وتعلمه فرض عين عليه . وأما ما لا بد له منه فى دنياه ، فيختلف باختلاف البيئات والأزمان . وأرى أن تعلُّم القراءة والكتابة والحساب وسائر ما يدرس فى المرحلة الابتدائية الآن – على الأقل – لازم لكل إنسان مسلم فى دنيا عصرنا حتى يكون عضواً نافعًا فى المجتمع ، ولا توصم أمتنا بالتخلف والأمية فى مواجهة الأمم الراقية المتعلمة .

ما يفترض تعلمه على سبيل الكفاية :

وهناك من العلوم ما يعد طلبه فرض كفاية على الجماعة ، بحيث إذا قام به واحد أو عدد كاف سقط الحرج عن باقى الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة عامة ، وأولو الأمر فيها خاصة .

يقول الإمام ابن حزم : ثم فرض على كل جماعة مجتمعة فى قرية أو مدينة أو دسكرة أو حلة أعراب أو حصن ، أن ينتدب منهم – لطلب جميع أحكام الديانة أولها عن آخرها ولتعلم القرآن كله ، ولكتاب كل ما صح عن النبى ﷺ ، من أحاديث الأحكام أو لها عن آخرها وضبطها بنصوص ألفاظها ، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه ، وما اختلفوا فيه – من يقوم بتعليمهم ، وتفقيههم من القرآن ، والحديث ، والإجماع ويكتفى بذلك علي قدر قلتهم أو كثرتهم » .

يعنى أن الواجب طلب جميع ما ذكره ابن حزم ، إن لم يستوعبه جهد الطالب .

---

(١) انظر : الإحياء ، للغزالى ، والأحكام لابن حزم السابق ذكرها .

واستدل ابن حزم لما ذكره بقوله تعالى : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة:١٢٢] فالنفار المذكور فرض علي الجماعة كلها ، حتى يقوم بها بعضهم فيسقط عن الباقين . ثم قال : وفرض على جميع المسلمين أن يكون فى كل قرية أو مدينة أو حصن من يحفظ القرآن كله ، ويعلمه الناس ويقرئه إياهم ، لأمر رسول الله ﷺ بقراءته [١] .

والظاهر أن فرض الكفاية هنا : هو كل ما تحتاج إليه الجماعة المسلمة فى دينها أو دنياها ، من التبحر فى علوم الشرع أو التخصص فى علوم الكون : من طب ، وهندسة ، ورياضة ، وفلك ، وكيمياء ، وطبيعة ، وإحياء ، وجيولوجيا أو غيرها ، من كل ما تتطلبه حياة الناس الاجتماعية فى هذا العصر مدنيًا أو عسكريًا .

بل كل ما يحتاج إليه المسلمون من العلوم ، ليتحقق لهم التفوق على غيرهم ، وتكون لهم القوة علي عدوهم ، فهو فرض عليهم على الكفاية ، والتفريط فيه يصيب الأمة كلها بالحرج والإثم . وقد يتعين فرض الكفاية فى حق بعض الناس إذا دعاه إليه من له الأمر ولا عذر عنده أو كان عنده من الأهلية ما ليس عند غيره ، وعلم ذلك من نفسه ، ولم يحل دونه حائل .

والأصل فى ذلك : أن كل ما يؤدى إلي ضعف الأمة ، يجب دفعه قبل وقوعه ، ورفعه إن وقع . وأن كل ما يؤدى إلى قوة الأمة واستقرارها ، وحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية ، يجب تحصيله عليها بالتضامن ، وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ويقول الإمام الغزالى فى بيان العلم الذي هو فرض كفاية :

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والعلوم بالإضافة إلي الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى : شرعية وغير شرعية ، وأعنى بالشرعية

---

(١) الإحكام لابن حزم ص ٦٩٠ / ٦٩١ .

ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب ، ولا السماع مثل اللغة ، فالعلوم التى ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود ، وإلى ما هو مذموم ، وإلي ما هو مباح ، فالمحمود ما يرتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلي ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة .

أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا كالطب إذ هو ضرورى فى حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب ، فإنه ضرورى فى المعاملات ، وقسمة الوصايا ، والمواريث وغيرهما . وهذه هى العلوم التى لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد . (أى : أثموا) ، وإذا قام بها واحد كفى وسقط الفرض عن الآخرين . فلا يتعجب من قولنا : إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضًا من فروض الكفاية كالفلاحة ، والحياكة ، والسياسة بل الحجامة والخياطة . فإنه لو خلا البلد من الحجام تسارع الهلاك إليهم ، وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك . فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ، وأرشد إلى استعماله ، وأعد الأسباب لتعاطيه ، فلا يجوز التعرض للهلاك بإهماله . وأما ما يعد فضيلة . لا فريضة ، فالتعمق فى دقائق الحساب ، وحقائق الطب ، وغير ذلك مما يُستغنى عنه ولكنه يفيد زيادة قوة فى القدر المحتاج إليه .

وأما المذموم : فعلم السحر ، والطلسمات ، وعلم الشعوذة والتلبيسات .

وأما المباح منه : فالعلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، والتواريخ والأخبار وما يجرى مجراه [1] . أ هـ .

وفى بعض ما ذكره الإمام أبو حامد هنا نظر ، بالنسبة لعصرنا . فإن اتساع نطاق العلوم اليوم ، وانقسام كل منها إلي فروع وكل فرع إلى تخصصات دقيقة، يخالف ما اعتبره الغزالى من باب التعمق المستغنى عنه فى دقائق الحساب ؛ وحقائق الطب ، وعده بذلك فضيلة لا فريضة .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى – جـ ١ ص [illegible] .

فالواقع أن هذا التعمق اليوم أصبح لازمًا لكل طب ناجح ، أو محاسبة ناجحة ، وقد تطور علم الطب ، والعلوم التى تخدمه تطوراً كبيراً ، وكذلك علم الرياضيات ، وكذلك علوم الطبيعة التى ذكر الغزالى نفسه فى مقام آخر أنه لا حاجة إليها !! بخلاف الطب فإنه محتاج إليه [١] .

وربما كان الإمام الغزالى رحمه الله معذوراً فيما ذكره من العلوم والرياضيات في عصره ، فقد كانت ممزوجة بالفلسفة ، غير منفصلة عنها ، وكان للغزالى رأي فى تلك الفلسفة وقضاياها ، مسجلة فى كتابه المعروف « تهافت الفلاسفة » ، وقل من يقرأ الجانب العلمى والرياضى من الفلسفة دون أن يتأثر بالجانب الإلهى منها كما أشار إلي ذلك فى « المنقذ من الضلال » . والجانب الإلهى من تلك الفلسفة خليط من الوثنية اليونانية ومن شطحات العقل البشرى فيما لا تعرف حقيقته إلا بالوحى المعصوم .

وكذلك ما ذكره عن العلم بالأشعار التى لا سخف فيها ، وتواريخ الأخبار، وما يجرى مجراه ، حيث عدها من قسم المباح فحسب ، والذى يبدو لى أن معرفة الشعر والأدب العربى عامة ، ومعرفة التاريخ الإسلامى على الخصوص ، والإنسانى على العموم ، من الواجبات الكفائية فلا يجوز أن تخلو الجماعة المسلمة عمن يحسنها ويوجهها وجهة الحق ، ويرد على من يستخدمها فى سبيل الباطل ، كما نرى ذلك بين أتباع اليمين واليسار .

وهى كذلك سلاح من الأسلحة الثقافية للداعية [٢] المسلم .

بل أرى أن واجبًا على الجماعة الإسلامية أن يكون فيها من يتخصص فى جميع ألوان الدراسات الإنسانية المختلفة (علم النفس ، والاجتماع ، والتربية ، والاقتصاد ، والسياسة وغيرها) ، حتى يدرسها ويعرضها من منطلق إسلامى أصيل ، وفى إطار إسلامى مأمون ، ولا سيما أن هذه العلوم الإنسانية

---

(١) الإحياء جـ ١ / ٢٢

(٢) انظر : كتابنا « ثقافة الداعية » فصول : الثقافة اللغوية والأدبية والتاريخية والإنسانية .

والاجتماعية ، هى التى تصنع فكر الأمة وذوقها ، وتلون اتجاهها وسلوك أفرادها بلونها ، فلا يجوز أن يعدها المسلمون مجرد مباح يجوز فعله وتركه ، إنما يجب عد ذلك من فروض الكفاية .

ولو رأى صاحب «الإحياء» رحمه الله ما رأينا من خطر هذه العلوم ، وتسلط حملتها على عقول الشباب ، واستغلال اليهود لها فى كثير من جامعات الغرب، ومراكز بحثه ، لغير رأيه واجتهاده ، وقضى بما قضينا ، ولكل عصر ظروفه وأحكامه .

تصحيح النية :

وأول ما يرجى من طالب العلم ، وبخاصة العلم الشرعى ، تصحيح النية ، وذلك أن يجاهد نفسه على الإخلاص والتجرد ، ويتحرى بعلمه وجه الله تعالى والدار الآخرة ، ولا يجعل همه ونيته مباهاة العلماء ، أو مماراة السفهاء ، أو مجاراة الأغنياء ، أو مداهنة الأمراء ، أو جمع المال ، أو الجاه ، أو غير ذلك مما يتطلع إليه الناس من متاع الحياة الأدنى ، فيبيعون باقيًا بفان ، وعظيما بحقير ، وملكًا كبيرًا بثمن قليل .

ولو جاز هذا فى طلب علوم الدنيا ، لم يجز فى طلب علوم الآخرة ، التى تحتاج أول ما تحتاج إلى تصفية السريرة ، وتجريد الهمة ، والإقبال بكلية القلب على الله تعالى .

ولقد جاء الحديث الصحيح يحمل الوعيد الشديد للثلاثة الذين أفسد الرياء أعمالهم ، ونقلهم من ديوان المخلصين الصادقين ، إلى ديوان المرائين الكاذبين فكانوا أول من تسعر بهم النار يوم القيامة .

ومن هؤلاء رجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ! قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال عالم . وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ . فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار [1] .

---

(١) رواه مسلم من حديث أبى هريرة فى الإمارة (١٩٠٥) .

وعن جابر قال ، قال رسول الله ﷺ « لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ، ولا تَخَيَّروا به المجالس ، فمن فعل ذلك ، فالنار النار »[١].

وعن ابن مسعود أنه قال : « كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير ، وتتخذ سنة ، فإن غيرت يوماً قيل : هذا منكر ! قيل : ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلت أمناؤكم ، وكثرت أمراؤكم . وقلت فقهاؤكم ، وكثرت قراؤكم . . وتفقه لغير الدين ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة »[٢] .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من تعلم علماً ، مما يُبْتَغى به وجه الله تعالى ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عَرَضا من الدنيا ، لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة » أى : ريحها[٣] .

وأى خسارة أكبر من أن يخسر الإنسان الجنة حتى إنه لا يجد عرفها وريحها ، وريحها يوجد من مسيرة كذا وكذا ؟!.

ومن رحمة الله تعالى – كما أفهمَ الحديثُ – أن الوعيد فيه إنما هو فيمن ليس له أى قصد أخروى ، لأنه جاء بهذا الحصر الحاسم « لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا » ومعنى هذا أن من قصد الآخرة بعلمه ، وأراد معها شيئاً من

---

(١) قال المنذرى : رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، كلهم من رواية يحيى بن أيوب الغافقى عن ابن جريج عن أبى الزبير عنه ، ويحيى هذا ثقة قد احتج به الشيخان وغيرهما ، ولا يلتفت إلي من شذ فيه . ورواه ابن ماجه بنحوه من حديث حذيفة – ترغيب رقم ١٧٩ . وقال العراقى في تخريج الإحياء : إسناد ابن ماجه صحيح . وقال البوصيرى فى زوائد ابن ماجه : رجال إسناده ثقات (الحديث (٢٥٤) من ابن ماجه) ورواه الحاكم ، وصحح إسناده وسكت عليه الذهبى (١ / ٨٥ – ٨٦) . وهى فى ابن حبان فى صحيحه كما فى الإحسان (٧٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق فى كتابه موقوفاً – ترغيب ١٨٥ .

(٣) قال المنذرى (ترغيب : ١٧٧) : رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم . وأقول : ووافقه الذهبى أيضاً (المستدرك جـ١ / ٨٥) وهى في أبى داود فى العلم (٣٦٦٤) وابن ماجه فى المقدمة (٢٥٢) وابن حبان فى صحيحه كما فى الاحسان (٧٨) .

الدنيا ، فلا يتناوله الوعيد المذكور ، شأنه شأن الحاج الذى يقصد إلي الحج ، ويقصد بجواره شيئًا من التجارة ، وقد تحرج من ذلك بعض الصحابة فنزل قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ [البقرة : ١٩٨].

فمدار الحكم على المقصد الأساسى : ما هو ؟ الآخرة أم الدنيا ؟ على أنهم قالوا : فرق بين من يأخذ الدنيا ليتفرغ لعمل الآخرة ، وبين من يعمل عمل الآخرة ليأخذ الدنيا . فتأمل فإنه موضع الزلل[١] .

والحديث إنما يذم من قصد بعلمه الدنيا ، لا من جاءته الدنيا بغير هذا القصد . وإنما ذم القرآن من ﴿ **طَغَىٰ * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النازعات : ٣٧ ، ٣٨] وذم أيضًا من وصفه الله بقوله : ﴿ **مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ [النجم : ٢٩] وكذلك ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ** ﴾ في مقابل ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ﴾ [الإسراء : ١٨ ، ١٩].

فالدنيا ليست مذمومة لذاتها ، كيف وقد كان كثير من العلماء الكبار أغنياء مثل الليث بن سعد ، وأبى حنيفة وغيرهما ؟ بل كان فى كبار الصحابة أغنياء ذوو ثروات طائلة مثل عبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وطلحة والزبير ، من العشرة المبشرين بالجنة ، بل كان فى الأنبياء أغنياء مثل يوسف ، وداود وسليمان الذين آتاهم الله النبوة والملك معًا .

والدنيا إنما ذمت هنا ، لأنها أُريدت بعمل الآخرة ، وعلم الآخرة ، ولهذا قيده فى الحديث بقوله « علم مما يُبتغى به وجهُ الله تعالى » وهو علم الدين . وكيف تذم الدنيا فى حد ذاتها وقد صح فى الحديث : « نعم المال الصالح للرجل الصالح »؟[٢]

وكيف تذم الدنيا لذاتها وهى مزرعة الآخرة ؟ . ولهذا قال العلامة القارى فى « المرقاة » : أفهم الحديث أن من أخلص قصده فتعلم لله ، لا يضره حصول

---

(١) المرقاة / شرح المشكاة جـ ١ ص / ٢٣٥ .

(٢) رواه أحمد (١ / ١٩٧) بسند جيد كما قال العراقى فى « تخريج الإحياء » .

الدنيا له من غير قصدها بتعلمه . بل من شأن الإخلاص بالعلم ، أن تأتى الدنيا لصاحبه راغمة ، كما ورد « من كان همه الآخرة ، جمع الله شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وتأتيه الدنيا وهى راغمة »[1] .

ومن المعروف أن معظم طلاب العلم فى عصرنا ، لا يتجهون إلى العلم بنية سابقة ، ورغبة مبيتة ، بل يوجههم إليه – فى صغرهم – آباؤهم وأولياء أمورهم ، أو يوجههم إليه – رغماً عنهم – مجموع درجاتهم في بعض المواد أو كلها ، أو توجههم ظروف خاصة بهم مثل ألا يكون فى البلد إلا لون معين من الدراسة يفرض عليهم ، رضوا أم سخطوا . ثم لا يلبثون إذا أدركوا ونضجوا أن يجدوا أنفسهم فى معهد دينى ، أو مدرسة شرعية ، ولو خُير اليوم ما اختار هذا الطريق فهذه دراسة بلا نية ، لأن صاحبها أجبر عليها ، ولم يكن له حق الاختيار ، وإنما النية مع الاختيار .

وينبغى لمن وضعته الأقدار فى هذا الموضع من تعلم الدين ودراسة علوم الشريعة ، أن يحاول من جديد إنشاء نية صالحة ، ورغبة صادقة ، وسيجد من العلم الذى يعيش فى ظلاله – علم القرآن والسنة – وصحبة أهل الخير فى سيرهم، ما يعينه على تصحيح النية ، وتجريد الإرادة لله جل شأنه .

وقد رووا عن مجاهد قال : طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية ، ثم رزق الله النية[2] .

وعن الحسن قال : لقد طلب أقوام العلم ما أرادوا به الله ولا ما عنده ، قال : فما زال بهم العلم حتى أرادوا به الله وما عنده[3] .

وعن الثورى قال : طلبنا العلم للدنيا ، فجرنا إلى الآخرة[4] .

وعن معمر قال : إن الرجل ليطلب العلم لغير الله ، فيأبى عليه العلم حتى يكون لله[5] . وعلق الغزالى على هذا الأثر وأمثاله بأن هذا لا ينطبق على علم

---

(١) المرقاة شرح المشكاة ص ٢٣٦ وهو فى سنن ابن ماجه رقم (٤١٠٥) بنحوه ، وقال فى « الزوائد » : اسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٢) ، (٣) : سنن الدارمى جـ ١ ص/ ٨٥ .

(٤) ، (٥) : « جامع بيان العلم » جـ ٢ / ٢٨ .

الخلافيات فى الفقه ، أو الجدل فى الكلام ، بل على التفسير والحديث . لما لهما من صلة بالله واليوم الآخر ، ولما لكلام الله وكلام رسوله من أثر . يمكن أن ينتهى بصاحبه إلى الإخلاص ورجاء الآخرة ، وما عند الله عز وجل[1] .

استمرار التعلم :

والعلم بحر لا قرار له ، ولا شطآن له ، وكلما تعمق طالبه فيه ، تفتحت له فيه أبواب جديدة ، وتبينت له معالم كانت خافية ، وتحتاج إلي مزيد بحث ومزيد تحقيق .

من أجل هذا كان الواجب على حامل العلم أن ينشد الزيادة منه على الدوام ، وأن يستمر فى طلبه ما عاش ، فالعلم يحتاج دوماً إلي تجديد ونماء .

وليس بعد أمر الله لرسوله بيان : ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ [طه : ١١٤] .

وقد قص علينا القرآن ، وقص علينا الرسول عليه الصلاةوالسلام ، قصة موسى عليه السلام فى طلبه علم ما لم يعلم ، عند عبد الله الخضر عليهما السلام، ولذا قال قتادة : لو كان أحد يكتفى من العلم بشئ لاكتفى موسى عليه السلام ، ولكنه قال : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [الكهف :٦٦][2]

ولا غرو أن شاع بين المسلمين هذه الحكمة «اطلب العلم من المهد إلى اللحد » وحكمة أخرى تقول : « لا يزال المرء عالمًا ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل »[3] .

وقال ابن عباس : منهومان لا تنقضى نهمتهما : طالب علم ، وطالب دنيا وقيل لابن المبارك : إلى متى تطلب العلم ؟ قال : حتى الممات إن شاء الله .

وسئل أبو عمرو بن العلاء : حتى متى يحسن بالمرء أن يتعلم ؟ فقال : ما دامت تحسن به الحياة !

---

(١) الإحياء. (٢) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١٢٠ .

(٣) هذه من كلام سفيان بن عيينه وليست حديثًا كما ظنها بعض الناس .

وسئل سفيان بن عيينة : من أحوج الناس إلي طلب العلم ؟ قال : أعلمهم، لأن الخطأ منه أقبح!

وقيل للمأمون : أيحسن بالشيخ أن يتعلم ؟ فقال : إن كان الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به .

وقال مالك بن أنس: لا ينبغى لأحد يكون عنده العلم أن يترك التعلم [1].

هذا هو مسلك المسلم : حرص على زيادة المعرفة ، واستمرار فى طلب العلم، لا يشبع منه ، ولا يرغب عنه ، ولا يحول دون طلبه كبر سن ، ولا عظم قدر ، حتى الممات .

وكان سلف الأمة حريصين على ألا يمر يوم دون أن يكتبوا فيه شيئًا من العلم ، كثر أو قل وإلا عدوا هذا اليوم ضياعًا وغبنًا .

وفى هذا روى الأثر : «إذا أتى علىَّ يوم لم أزدد فيه علمًا يقربنى من الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم» .

قال ابن القيم : وقد رفع هذا إلى رسول الله ﷺ ، ورفعه إليه باطل ، وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين .

وفى مثله قال القائل :

إذا مر بى يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علما فما هو من عمرى!

وخطب على رضى الله عنه ، خطبة قال فيها : واعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل أمرئ ما يحسن ، فتكلموا فى العلم تتبين أقداركم .

قال الإمام ابن عبد البر : ويقال : إن قول على : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » لم يسبقه إليه أحد .

وقالوا : ليس كلمة أحض على طلب العلم منها : قالوا : ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل : ما ترك الأول للآخر شيئًا [2] .

---

(١) هذه الآثار في « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١١٩ .

الصبر على متاعب الطلب :

ومن أدب المتعلم فى الإسلام : أن يوطن نفسه على احتمال المتاعب ، ومواصلة عناء النهار بسهر الليل ، والصبر على مشاق الارتحال فى طلب العلم .

ولا يخفى على طالب علم ما ذكره القرآن العظيم ، وما نوه به الرسول الكريم من أمر موسى كليم الله ، ومصطفاه عليه السلام ، وارتحاله فى طلب العلم عند عبد الله المعروف بـ « الخضر عليه السلام » ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا** ﴾ [الكهف : ٦٠] ، وقطع هو وفتاه ما قطعا من مفاوز ، ومسافات لا يعلم طولها إلا الله تعالى ، كان من أثرها ما عبر عنه موسى بقوله لفتاه : ﴿ **آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا** ﴾ [١] . وكان ما كان من عودتهما مرة أخرى قافلين إلى الموضع المنشود للقاء .

وقال ابن عباس : طلبت العلم ، فلم أجده أكثر منه فى الأنصار ، فكنت أتى الرجل فأسأل عنه : فيقال لى : نائم ، فأتوسد ردائى ثم أضطجع حتى يخرج إلى الظهر ، فيقول : متى كنت ههنا يا ابن عم رسول الله ، فيقول : منذ زمن طويل فيقول : بئسما صنعت ، هلا أعلمتنى ؟ فأقول : أردت أن تخرج إلىّ وقد قضيت حاجتك » [٢] .

وكان ابن عباس يقول : ذللت طالباً ، فعززت مطلوباً .

وذكر ابن عبد البر وغيره : أن أبا أيوب الأنصارى رحل من المدينة إلى مصر ليسمع من عقبة بن عامر حديثاً سمعه من النبى ﷺ فى ستر المسلم على المسلم، فلما سمعه منه أتى أبو أيوب راحلته فركبها وانصرف إلى المدينة ، وما حل رحله [٣] .

---

(١) القصة فى سورة الكهف ، وفى صحيح البخارى « كتاب العلم » (٧٤) .

(٢) سنن الدارمى جـ ١ ص / ١١٤ .

(٣) رواه ابن عبد البر فى « كتاب العلم »

ونحو هذا حدث لجابر بن عبد الله الأنصارى . فقد رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد [١] .

وقال سعيد بن المسيب : إن كنت لأسير الليالى والأيام فى طلب الحديث الواحد . وحدث الشعبى رجلاً بحديث ثم قال له : خذها بغير شئ ، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلي المدينة ، (وكان الشعبى بالكوفة بالعراق) .

وقال الشعبى : لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلي أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره قد ضاع [٢] .

ورحلات المسلمين وبخاصة علماء الحديث فى طلب العلم لا يعرف التاريخ لها نظيراً ، ومن طالع رحلات الأئمة مثل الشافعى ، وابن حنبل ، والبخارى ، ومسلم وغيرهم ، عرف مبلغ ما عاناه هؤلاء الفحول فى طلب العلم .

لقد بذلوا فى طلبه النوم بالليل والراحة بالنهار ، وتحملوا الشظف والفقر فى سبيله غير ضجرين ولا متبرمين . فقد تلقوا عن شيوخهم هذه الحكمة : لا ينال العلم براحة الجسم . وكان الإمام مالك يقول : إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر ، وذكر ما نزل بربيعة من الفقر فى طلب العلم ، حتى باع خشب سقف بيته ، وحتي كان يأكل ما يلقى علي مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر !

وقال شعبة لأصحابه : ليبلغ الشاهد منكم الغائب : من ألح في طلب العلم – أو قال فى طلب الحديث – أورثه الفقر .

وقال سحنون : لا يصلح العلم لمن يأكل حتي يشبع [٣] .

---

(١) ذكره البخارى معلقًا مجزومًا به فى صحيحه باب الخروج فى طلب العلم . وذكر فى الفتح (١ / ١٨٣) له طرقًا بعضها عند أحمد ، وأبى يعلى والطبرانى في مسند الشاميين ولا تخلو من مقال ، وعند تمام فى فوائده من طريق إسنادها صالح .

(٢) « جامع بيان العلم » وباب الرحلة فى طلب العلم .

(٣) ذكر هذه الآثار ابن عبد البر فى : « جامع بيان العلم » باب الحض على استدامة الطلب والصبر على الأذى والنصب .

وليس المهم فى طلب العلم محض تعب البدن ، بل أهم منه تفريغ القلب له بالتقليل من شواغل الدنيا المادية ، وصوارف الحياة الاجتماعية ، فإن العلائق شاغلة وصارفة . وقد قال تعالي : ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ** ﴾ [الأحزاب : ٤]

ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق . ولذلك قالوا : العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، فإذا أعطيته كلك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر .

قال الغزالى : والفكرة المتوزعة علي أمور متفرقة كجدول تفرق ماؤه ، فنشفت الأرض بعضه ، واختطف الهواء بعضه ، فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدرع .

فهذه نظرتهم للعلم ، وهذه كانت حياتهم في طلبه . وكانوا قريرى العين بها ، فإن لذة معرفة الحقيقة تنسى مشقة الحصول عليها . وقد قيل لأحد العلماء: فيم لذتك ؟ فأجاب فى حجة تتبختر اتضاحًا ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحًا !

ومن الصبر المحمود ، والمطلوب لطالب العلم : أن يصبر على أستاذه ، ويحتمل شدته إن كان شديداً ، وغضبه إن كان غضوبًا ، ويحترم صمته فيما لا يحب الكلام فيه . وخير مثل لذلك هو صبر موسى علي الخضر عليهما السلام ، قال له موسي : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾ [الكهف : ٦٦ – ٧٠].

فهذا صبر أشد من الصبر على نصب الأسفار ، ومتاعب الفقر والارتحال ، ولهذا صبر موسى على النصب في سفره الطويل ، ولم يطل صبره على هذا الأخير ، وقال له الخضر : ﴿ **قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف : ٧٨].

توقير المعلم وإكرامه :

ومن أدب المتعلم الذي جاءت به السنة النبوية : توقير المعلم ، وإعطاؤه ما يستحق من التكريم والإكبار ، فإن المعلم لتلميذه بمنزلة الأب لولده . بل قال يحيى بن معاذ رحمه الله : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم . قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا ، والعلماء يحفظونهم من نار الآخرة .

وبهذا صار حق المعلم - كما يقول الغزالى - أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر ، والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلي الهلاك الدائم . وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية . أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة[1] .

وفى المفاضلة بين المعلم والأب يقول الشاعر :

فهذا مربى الروح والروح جوهر وذاك مربى الجسم والجسم كالصدف!

وقال الحسن : لولا العلماء ، - أي : المعلمون - لصار الناس مثل البهائم ! أى : أنهم بالتعليم يخرجونهم من حضيض البهيمية إلى أفق الإنسانية .

ومن أجل هذا جاءت الأحاديث بتوقير العلماء ، وإكرامهم حتي بعد موتهم . وعن جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ ، كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد (يعنى في القبر) ثم يقول : أيهما أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلي أحدهما قدمه فى اللحد [2] . وفى هذا التقديم رمز لتكريمه لفضل ما معه من قرآن أكثر .

وعن أبى موسى أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن من إجلال الله إكرام ذى

---

(١) الإحياء : جـ ١ / ٥٥ .

(٢) رواه البخارى فى الجنائز (١٣٤٣) - ترغيب ١٦٤ .

الشيبة المسلم ، وحامل القرآن غير الغالى فيه ، ولا الجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط »[1].

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ ، قال : « ليس من أمتى من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ، ويعرف لعالمنا »[2] ، أى : يعرف له حقه .

وحسبنا أن نذكر ونذكر هنا بقصة نبى الله وكليمه موسى بن عمران الذي اصطفاه الله برسالاته وبكلامه ، وآتاه التوراة فيها موعظة وتفصيل لكل شئ فى زمنه . فلما أعلمه الله بما عند الخضر من علم ليس عنده ، رحل موسي إليه كما أشرنا إلي ذلك من قبل واستعذب العذاب في سبيل ملاقاته والاستفادة منه ، فلما وجده ، قال له موسى فى أدب التلميذ وتواضع المتعلم : ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ . بهذه الصيغة الحاسمة « هل أتبعك » فهو اتباع وليس رفقة أو مصاحبة ، وهو يستأذنه فى هذا ، لأن المعلم المتطوع هو صاحب الحق في انتقاء طلبته : يقبل من يشاء ، ويرفض من يريد ، ولا معقب عليه . هذا على الرغم من فضل موسى عليه بيقين، فهو قد اختلف في نبوته . علي حين موسى من أولى العزم من الرسل ، ويكفى قوله تعالى : ﴿ **يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي** ﴾ [الأعراف : ١٤٤] .

وقال ابن عباس : والله إن كنت لآتى الرجل منهم ، (أى : الأنصار) فيقال : هو نائم فلو شئت أن يوقظ لى ، فأدعه حتى يخرج ، لأستطيب بذلك حديثه[3] .

وعن الشعبى قال : صلى زيد بن ثابت على جنازة ، ثم قربت له بغلة ليركبها ، فجاء ابن عباس ، فأخذ بركابه توقيراً وتعظيماً لعلمه وفضله ، فقال له

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٨٤٣) ترغيب ١٦٥ ، والمقسط العادل .

(٢) رواه أحمد (٥ / ٣٢٣) والطبرانى وقال الهيثمى : إسناده حسن المجمع (١ / ١٢٧) والحاكم ، إلا أنه قال : ليس منا .

(٣) الدارمى : جـ ١ / ١١٥ .

زيد : خل عنك يا ابن عم رسول الله . فقال ابن عباس : هكذا نفعل بالعلماء والكبراء [١] .

وعن الزهرى قال : كنت آتى باب عروة فأجلس بالباب ، ولو شئت أن أدخل لدخلت ، ولكن إجلالاً له [٢] .

وعن علي بن أبى طالب رضى الله عنه قال : إن من حق العالم : ألا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته فى الجواب ، وألا تلح عليه إذا كسل ، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، (أي : تريد أن تستوقفه) ، ولا تفشين له سراً ، ولا تغتابن عنده أحداً . ولا تطلبن عثرته ، وإن زل قبلت معذرته ، وعليك أن توقره وتعظمه لله ، مادام يحفظ أمر الله ، ولا تجلس أمامه ، (أى : تدير له ظهرك) ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته [٣] .

ومن توقير المتعلم لمعلمه : أن يحسن الصمت فى موضعه ، كما يحسن الكلام أو السؤال فى موضعه .

قال الحسن بن على لابنه : يا بنى ، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك علي أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن الصمت ،ولا تقطع على أحد حديثًا وإن طال حتى يمسك .

وقال شعبة : كل من سمعت منه حديثًا . فأنا له عبد !

وهذه الكلمة قد شاع معناها عند المسلمين حتى جرت مجرى المثل، وهى قولهم : « من علمنى حرفًا صرت له عبداً » ! وهذه غاية فى التكريم للعلماء والمعلمين ، لم ترق إليها أمة من الأمم .

---

(١) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١٥٥ وقال العراقى في تخريج الإحياء : أخرجه الطبرانى فى الكبير وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح غير رزين الرمانى وهو ثقة المجمع (٩ / ٣٤٥) والحاكم والبهقى في المدخل ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد علي شرط مسلم .

(٢) الدارمى : جـ ١ / ١١٥ .

(٣) « جامع بيان العلم » جـ ١ / ١٥٦ ، ١٥٧

ولم يشع بيت من الشعر في عصرنا كما شاع بيت شوقي في مطلع قصيدته الشهيرة في تكريم المعلم :

قُـــم للمعلم وَفِّـــهِ التبجيلا كاد المعلم أن يكون رســولا!!

أرأيت أعظم أو أجل من الذى يبنى وينشئ أنفسًا وعقولا؟!

حسن السؤال :

وليس من توقير العالم أو المعلم ترك سؤاله فيما يشكل عليه حياء منه ، فإن هذا ليس من الحياء الشرعي المحمود ، الذى هو من الإيمان ، ولا يأتى إلا بخير. وإنما هو ضعف ومهانة ، ولهذا قال مجاهد : لا يتعلم العلم مستحيى ولا مستكبر (١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين (٢) .

وروى البخارى عن أم سلمة رضي الله عنها ، قالت : جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحيي من الحق ، فهل علي المرأة من غسل إذا احتلمت ؟ (تعنى إذا رأت فى منامها أن رجلها يجامعها) . فقال النبى ﷺ : إذا رأت الماء .

وهنا نجد أم سلمة تغطى وجهها حياءً ، وعائشة تقول لها – كما في صحيح مسلم – فضحت النساء !! (٣) .

ومن غلبه الحياء فى أمر ما ، فليدع غيره ليسأل له عما يريد ، كما فعل على بن أبى طالب ، حين استحيا أن يسأل النبى ﷺ عن المذى ، لمكان رسول

---

(١) رواه البخارى معلقًا في صحيحه – كتاب العلم – باب (٥٠) الحياء فى العلم – ووصله أبو نعيم فى « الحلية » ، بإسناد صحيح ، كما فى الفتح جـ ١ / ٢٣٩ .

(٢) رواه البخارى معلقًا أيضًا كتاب العلم باب (٥٠) ووصله مسلم كما فى (الفتح نفسه) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٣٠) .

الله ﷺ ، من ابنته التى هى زوجته ، فأمر المقداد وعماراً ، فسألا له رسول الله ﷺ عن ذلك (١) .

ويقول الإمام ابن شهاب الزهرى : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال . يعنى : أن الذى يستخرج ما فى صدور العلماء من العلم هو مساءلتهم . وفى هذا فائدة للعالم نفسه ، ليظهر المخبوء من علمه ويحيا وينتشر ، وفائدة للمتعلم ، ليعرف ما يجهل ، ويؤكد ما يعلم ، ويستوثق مما يستريب فيه .

وهذا شأن الطالب النابه ، لا يقرأ أو يسمع إلا ليعى ويفهم ، وإلا سأل وراجع . وروى البخارى عن ابن أبى ملكية : أن عائشة كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه (٢) .

وقد سأل كثير من الصحابة عن أمور لهم لم يستبن لهم المراد منها ، حتى أجيبوا عنها ، كسؤالهم عن آية : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ [الأنعام : ٨٢] قائلين : وأينا لم يظلم نفسه ؟ فأجيبوا : أن المراد بالظلم فى الآية الشرك . كقوله تعالى على لسان لقمان : ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ .

وأمثال ذلك كثير ، ومن لم يسأل أضاع على نفسه علمًا كثيراً . يقول الشاعر :

إذا كنت لا تدرى ولم تك بالذى يسائل من يدرى ، فكيف إذن تدرى؟!

وقال عمر : من علم فليعلِّم ، ومن لم يَعْلَم فليسأل العلماء .

* * *

---

(١) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٣٢) « باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال . الفتح ٢٤ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم (١٠٣) .